ماري-لويزه فريك

التفكير بشجاعة

التنوير بوصفه عملية مفتوحة

إصدار خاص لسلسلة ريكلام من مكتبة ريكلام العالمية برقم ١٩٦٨٣

دار فيليب ريكلام الابن (شركة ذات مسؤولية محدودة)
سيمنز شتراسة ٣٢
٧١٢٥٤ ديتسينجن

٢٠٢٠

© ماري-لويزا ٢٠٢٠

قدمت الوكالة الأدبية لميشائيل جاب هذا العمل

الغلاف: كورنيليا فايل وفريدريش فورسمان

الطباعة والتكعيب: شركة ج.ج.ب ميديا (شركة ذات مسؤولية محدودة)
كارل ماركس شتراسة ٢٤
٠٧٣٨١ بوسنيك

الطباعة بجمهورية ألمانيا الاتحادية

ريكلام ماركة مسجلة لشركة فيليب ريكلام الابن بمدينة شتوتجارت

رقم الإيداع الدولي: ٤-٠١١٢٩٨-١٥-٣-٩٧٨

النسخ الالكترونية من هذا الكتاب متاحة

www.reclam.de

الفهرس

المقدمة

أولًا: المقدمة، ما هو عصر التنوير؟
تفسير ما هو مبهم
معطيات الأزمة
التنوير في صيغة الجمع: مشكلات جديدة
ونحن؟

ثانيًا: التفكير المستقل
خطورة التفكير المستقل
التفكير المستقل للجميع؟
التفكير المستقل بشكل صحيح
المرأة الرشيدة

ثالثًا: السيادة
السيادة للشعب!
المقاومة مسموحة
السيادة للشعب؟
امتلاك الحقوق

رابعًا: التعايش
من ينتمي للشعب؟
جماعة دون شعب؟
التحمل المتبادل
مالا يمكن تحمله

خامسًا: الإنسانية
لا يوجد أحد هنا
الجريمة والعقاب
عالم بلا حرب
مستقبل الحركة الإنسانية

الملاحظات
المراجع
نبذة عن المؤلفة

كلمة افتتاحية

هذا عمل أردت كتابته منذ فترة طويلة – وتمكنت من إتمامه خلال فترة استراحة من البحث العلمي. جمعت الأفكار والمصادر في عدد من المكتبات، خلال جولات على الشاطئ، في أحاديث وأثناء رحلات برية. كانت حياة مختلفة؛ بل وعالم مختلف أيضًا. هل سنعود يومًا ما إلى عصر ما قبل انهيار فرص التنقل في كل أنحاء العالم وحالة الرخاء النسبي في أنحاء واسعة من هذا العالم؟ لقاءات حرة في ساحات عامة؟ هل سنعرف يومًا ما حجم الكارثة الطبيعية، بل ربما "الكارثة الثقافية" أيضًا، التي تعرضنا لها بحكم كوفيد-١٩؟ إلى متى ستمتد هذه الأزمة؟

لن يتمكن أي شخص اليوم من التصريح بأي شيء في هذا الشأن. قد يمنحنا الانهماك في فكر عصر التنوير دافعًا لإدراك أفضل على الأقل لتلك المشكلات المتفاقمة. ربما نجد ما يواسينا، حينما نتواصل مع بشر أُجبروا في زمنهم على التعامل مع ويلات تفوق التصور، فضلًا عن التحولات والتجديدات، هؤلاء الذين رفضوا الاستسلام لأقدارهم، وأدركوا دورهم المكتوب عليهم للفعل والتفكير المستقل. ربما يكون عصر التنوير بعيد عن أذهان الكثيرين. وربما ينجح هذا الكتاب في إقناعهم بأن عصر التنوير أقرب ما يكون، إنه ليس متحفًا؛ لكنه حقل شاسع يدعونا لحرثه بشجاعة. هيا نُزيل عنه الأعشاب ونخصبه! ثم نجد الراحة في ظل أشجاره العظيمة.

المقدمة: ما هو عصر التنوير؟

يصف عصر التنوير حقبة زمنية من تاريخ الحضارة (في الأغلب الغربية)، وتتسم تلك الحقبة بتغيرات في مفهوم الذات والعالم لدى مجموعة من البشر (في الأغلب الغربيين)؛ ونتجت عنها تحولات اجتماعية أيضًا. نفهم هذه التحولات بوصفها تقدم حاسم، يبتعد عن الظلام ويقترب من النور. من الصعب تحديد توقيت البداية والنهاية، وكذلك ماهية التحولات الاجتماعية الحاسمة وكيفية تقييمها بوصفها صالحة، متناقضة أم ضارة، كما لا نعرف العوامل التي ساعدت على التنوير، وإن كانت عمليات طارئة أم لها ضرورة تاريخية. يمهد مجموع الإجابات على هذه الأسئلة الطريق للتعرف على عصور أخرى للتنوير في تاريخ العالم.

فلنتحدث إذًا عن "التنوير" الذي يقصد حقبة زمنية في تاريخ أوروبا وأمريكا الشمالية في العصر الحديث (قلما تشمل روسيا أو أمريكا الجنوبية)، ويطلق عليها كثيرًا "عصر العقل". البعض يساوي بين هذا العصر والقرن الثامن عشر ′الطويل′، والبعض الآخر يرى بدايته مع عصر النهضة الذي ارتبط بالتدفقات الفكرية ("الوثنية") للعصر الكلاسيكي وعمل على تطويرها. تنظر الأغلبية إلى هذه الحقبة بوصفها منتهية، ولكن يرى البعض الآخر إنها مستمرة. يدعي المعجبون بها إن التفكير العقلاني قد اتخذ منعطفًا جديدًا، وتحرر الإنسان، وتغلب على الدين، وأُرسيت قواعد الديمقراطية وحقوق الانسان. فيما يعترض نقاد عصر التنوير: لقد أخذ التفكير العقلاني في عصر التنوير وضع لا يستحقه ودُفع به إلى مناطق محفوفة بالمخاطر. مهدت بعض عمليات التحرر الطريق لقهر جديد، أخذت أديان جديدة مكان أديان قديمة، كما مُنحت الحقوق مع إقصاء قطاع عريض من الشعب والشعوب في

العالم كله. أما أعنف نقاد عصر التنوير فينظرون إليه بوصفه عملية تدمير ذاتية قبيحة للحداثة.

التاريخ نفسه، كسلسلة من الأحداث، لا يعرف فكرة العصور. إنها تقسيمات صنعها وفرضها الإنسان، بمعنى آخر: إنها تصميمات تفرض فكرة أن أحداث بعينها وقعت وفقًا لوتيرة واحدة (التنوير بوصفه "مشروعًا")، وإن الحدود قد رُسمت بشكل واضح (الحداثة على عكس العصور الوسطى).

وما عصر التنوير إلا تصميم مثل هذه التصميمات؛ ولكن لا يعني ذلك إن الحديث عن هذا العصر أو افتراضية عدم وجوده أمر خاطئ. تشير هذه المقولة إلى عنصر التأويل والانتقاء الذي تشمله أي نظرية للتاريخ. السؤال الحاسم هو: ماذا نقصد تحديدًا عندما نتحدث عن التنوير، وماذا نتجاهله؟

تفسير ما هو مبهم

نلقي الآن نظرة على بعض التوصيفات المعتادة لعصر التنوير: مَنْ يفسر عصر التنوير بعصر العقل، سريعًا ما يواجه سؤالًا حول توجهات العصر ذاته التي تضع المشاعر والغرائز والشغف على الدرجة نفسها مثل العقل، وربما في درجة أعلى. نجد في علم الأخلاق والفلسفة السياسية للعصر الحديث تصورات لا تتفق مع صورة التنوير العقلاني البارد. الفيلسوف والتنويري الإنجليزي دافيد هيوم نفى قدرة العقل على تحفيزنا للتصرفات الأخلاقية، وأكد أن الدور الحاسم يكون للعاطفة (passions) في هذا الشأن. أما نظرية الدولة المؤثرة لتوماس هوبز لا تنحصر في الإنسان بوصفه كائنًا عقلانيًا؛ بل ترى بداية الأنثروبولوجيا الآلية نابعة من الخوف من الموت. باختصار: العقل والعاطفة، كلتا الحالتان ترتبطان بالتنوير.

مقولة إن التنوير قام على موقف مضاد للدين مقولة أخرى غير دقيقة. دون الخوض في سياقات إقليمية، ودون إلقاء الضوء على التعدد الطائفي في بدايات العصر الحديث، يفوت علينا سريعًا أنه على الرغم من انتقاد أشكال عديدة للدين من اتجاهات مختلفة، نجد إن قلة قليلة انطلقت من عدم اتفاق الدين مع العقل. صحيح إن فلسفة التنوير باندفاعها نحو الاختراق الكامل لجميع المجالات قد رفعت من شأن الوجود الدنيوي للبشر، وأدت إلى "انتشار العلمانية"، وذلك بحسب مؤرخة العلوم مارجريت ياكوب؛ إلا أن التنوير لم يسعَ مطلقًا إلى استبدال الدين بالعقل، التنوير انشغل بقضية ماهية الإيمان العاقل.

يتجلى الدور إلهام للتوجهات الدينية وسردياتها في ممارسات التنوير حينما نلقي نظرة على الحراك الاجتماعي والسياسي في بدايات العصر الجديد: ربطت الحركة الإنجليزية (Levellers) رؤيتها للمساواة الاجتماعية بين البشر في العالم أجمع بأفكار مسيحية متطرفة. ترجع مساعي القضاء على تجارة الرق عبر المحيط الأطلنطي إلى مجموعة الأصدقاء المتدينين (الكويكرز) ومجموعة الميثوديين. إذًا القناعات الدينية جزء من التنوير تمامًا مثل الأفكار الوثنية الصريحة والمتخفية، وكذلك السخرية اللاذعة من أشكال الحياة المتدينة.

كثيرًا ما يوصف عصر التنوير بأنه أزهى عصور الكونية: جاءت المبادئ والقواعد التي تسري على الجميع، شملت النظرة البشر أجمع. بصياغة ناقدة: فُرضت الأفكار الغربية على البشر أجمع. حينما ندقق النظر نحتار أكثر. كيف كان لعمل يحد من صلاحية القوانين في ظروف طقسية محددة ويربط اختيار شكل الحكم بالتعداد السكاني، كيف كان له كل هذا التأثير في عصر التنوير الكوني، مثلما حدث مع عمل شارل دو مونتيسكيو "عن روح القانون" (De l’esprit des loix ،١٧٤٨)؟ كيف نفسر نشأة كيانات قومية منعزلة تحت تأثير النظريات الرائدة للدولة في عصر التنوير؟ ناهيك عن انتهاك التوجه الكوني المميز لعصر التنوير من خلال ممارسة الطبقية العنصرية والتفرقة بين الجنسين، ونجد هذه الممارسات تظهر في تناقض متناهي إلى جانب الاعتراف بالمساواة: يبدأ إعلان الاستقلال الأمريكي بعبارة "لقد خُلق البشر جميعًا أسوياء." شمول وإقصاء، العام والخاص: التنوير يتنفس هذا وذاك.

يقال في هذا السياق أحيانًا إن التنوير كان مشروعًا استعماريًا يضع التفكير العقلاني الأوروبي في مواجهة الكيان "المتخلف" للشعوب الأخرى. هذه النظرية في شكلها المعمم ليست صحيحة على طول الخط. من يمثلها يتجاهل النقد الذي وجهه أدباء ومفكرو عصر التنوير إلى مجتمعاتهم من خلال المقارنة بثقافات أخرى؛ مع تناولهم لتورط هذه المجتمعات في المساعي الاستعمارية وارتكاب ’آثام قومية‘. يكفي هنا ذكر التنويري الأصيل دينيس ديدروه ونقده لشكل حياة الأوروبي المسيحي، في كرهه للجسد وتصنعه وفساده. جاء نقده في ملحق كتابه "رحلة بوجانفيل" (Supplément au voyage de ،١٧٧٢ Bougainville)؛ والذي وصم فيه الأوروبيين بأنهم "مسممي الشعوب". من يمثل هذه النظرية يتجاهل أيضًا الانفتاح الفضولي للكثيرين تجاه الثقافات والديانات خارج القارة الأوروبية، ويتجلى هذا الانفتاح في العديد من كلاسيكيات الفكر التنويري، منها خطاب الفيلسوف وعالم المنطق كريستيان فولف الذي صدر في عام ١٧٢١، وأعرب فيه عن تقديره لفلسفة كونفوشيوس وتناول الفلسفة العملية للصينيين. ومنها أيضًا دراسات فرنسوا قيسناي عن الصين. رؤية الذات في عيون الآخرين وفهمها بشكل أفضل من خلال مواجهة الآخر؛ هذا هو المضمون الذي أدى إلى الانبهار بأكثر الكتب مبيعًا؛ مثل الرسائل الفارسية (Lettres Persanes ،١٧٢١) للكاتب مونتيسكيو؛ ورحلة حول العالم (A ،١٧٧٨ Voyage round the World) للكاتب جورج فورستر. هؤلاء، الذين لا يقعون في فخ الإدانة الأخلاقية العامة لعصر التنوير، على حق حينما يشيرون إلى التناقض الذي تتسم به تلك العقول المحبة للبشر. أشخاص عنصريون ذوو نزعة إنسانية، لم تكن هذه التركيبة غريبة على عصر التنوير.

نكتفي بهذا القدر من الإشارات التي تؤكد أن التنوير لم يكن مشروعًا متجانسًا أو برنامجًا يخلو من التناقضات؛ بل نحن هنا بصدد تشابك معقد من التصورات والممارسات المتنوعة. لا يمكن إعادة سرد عصر التنوير بوصفه ’ملحمة‘ دون إلقاء الضوء على هذا التعدد في الأصوات وهذا الغموض. نقترب أكثر من عصر التنوير حينما نتخيله مثل لوحة فسيفساء تتكون من قصص صغيرة عديدة، وتسمح هذه القصص، بل وتفرض علينا، أن نسعى دومًا

إلى التعرف على مضمونها والموعظة التي تقدمها. إن شئنا فهي قصص عن أعمال وأفكار بشر حقيقيين، تصورات للعالم وضعوها ودمروها، قصص عمّا حاربوه وحاربوا من أجله، عمّا سعوا إليه وأنجزوه، وعمّا فشلوا في تحقيقه.

هل هناك ما يربط كل هذه القصص ببعضها البعض؛ ويسمح لنا على الرغم من هذا الغموض بالحديث عن عصر التنوير؟ قد تكون نقطة الربط هذه ممثلة في الأزمة الوجودية التي أصابت البشر في عصر التنوير وكانت سببًا في نشأة الأفكار والممارسات التي انعكست بعد ذلك عليها.

معطيات الأزمة

قلما يُطرح سؤال حول أسباب الأفكار الكثيرة الجديدة في العصر وقلب الكثير من الموروثات، بل والسعي إلى التجديد بشغف. لم يكن السبب الوحيد يرجع إلى تكوُّن وعي لآفاق زمنية مفتوحة سوف تنشأ بمجرد تحرر تاريخ الكون من "العصور الوسطى" التي تفصل بين مولد المسيح وعودته مرة أخرى. أتاح هذه الوعي فكرة التقدم؛ ولكنها لم تكن بعد أمر حتمي.